كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

النقد القديم/المرحلة الثالثة

د. جبار عبد ضاحي

المحاضرة الحادية عشرة

الآمدي ومنهج الموازنة:

Amdi and bubget approach

اتخذ الآمدي الموازنة منهجاً نقدياً رسم معالمه ووضح خطواته بشكل علمي محكم. إمتاز بدقة منهجه واصالة رأيه وعمق فكره وحسن عرضه ونصاعة اسلوبه.

لقد عمد الآمدي الى جمع الموازنات المتناثرة التي ذكرها النقد الادب العربي في مجالس الادباء،وكذلك محاولات الشعراء فيما بينهم، والاستفادة منها لتكوين منهج نقدي يطبقه في عملية نقده لشاعرين معاصرين هما (ابو تمام والبحتري)،هذان الشاعران جمعهما النسب الواحد والعصر الواحد، والاهم من ذلك كونهما متفقين في صفتين مهمتين هما: غزارة شعريهما وكثرة جيدهما وبدائعهما.وقد اوضح الآمدي ان سبب تأليفه الكتاب هو كثرة ما شاهده ورآه من رواة اشعار المتأخرين ممن يزعمون ان الشعر عن ابي تمام ،يوجد فيه فرق شاسع بين الجيد من شعره، والرديء منه.(بمعنى جيده جيد.ورديئه رديئ).أما شعر البحتري فهو صحيح السبك،حسن الديباجة، وليس فيه سفاف ولا رديء، ولا مطروح ولهذا صار مستوياً يشبه بعضه بعضاً.

ومع ذكره لصفات هذين الشاعرين الفنية في وجهتي نظر فريقين مختلفين،اراد الآمدي ان يبين أن الاختلاف في تفضيل احدهما على الآخر أمر طبيعي،وذلك لكثرة جيدهما وبدائعهما ،فهما اذن متقاربان في الإجادة والإبداع،واختلاف الناس في اشعارهما مردود الى اختلاف اذواقهم ومذاهبهم الأدبية. فمن(فضل البحتري ونسبه الى حلاوة النفس ،وحسن التخلص، ووضع الكلام في مواضعه، وصحة العبارة، وقرب المأتى ، وانكشاف المعاني، هم الكتاب والاعراب والشعراء المطبوعين واهل البلاغة.

أما من(فضل ابا تمام ونسبه الى غموض المعاني ودقتها، وكثرة ما يورده مما يحتاج الى استنباط وشرح واستخراج، هم اهل المعاني والشعراء واصحاب الصنعة، وممن يميل الى التدقيق ةفلسفي الكلام).

إذا هناك اختلاف في طريقتي ابي تمام والبحتري الفنية،وهذا الاختلاف هو الذي سبب تباين في مواقف الناس إزاء شعريهما.وقد نقل الآمدي رواية عن البحتري نفسه يبين فيها منهجه الفني المختلف عن

منهج ابي تمام، يقول البحتري متحدثاً عن ابي تمام: (كان اغوص على المعاني مني، وانا اقوم بعمود الشعر منه). لذلك البحتري ينبهنا الى مقياس وجد سابقاً قبل هذين الشاعرين، وهو النظر الى شعر الشاعر من خلال معرفة مدى مشابهة اشعاره بأشعار القدماء، تلك المشابهة اصطلحوا عليها مصطلح " عمود الشعر" والمقصود بها هو النهج الفني الذي استقيت مقاييسه من القصيدة العربية التقليدية ، أو طريقة الشعراء الاعراب. والآمدي بهذا يضع البحتري في كفة الشعراء المطبوعين السائرين على نهج الشعراء الاعراب، ويضع ابا تمام في كفة الشعراء الخارجين على عمود الشعر، المستنبطين للمعاني بحثاً عن الغامض منها دون ان يرجح كفة ابي تمام أو البحتري.

وهناك مسألة أخرى وضحها الآمدي قبل البدء بالموازنة، وهي أن الإختلاف في الموقف إزاء شاعرين كبيرين مقدمين أو اكثر أمر طبيعي في تأريخنا الأدبي(لأن الناس لم يتفقوا على أي الشعراء أشعر؟ فيما يتعلق بالشعراء العرب القدامى، الذين سبقوا البحتري وابا تمام. لإختلاف آراء الناس في الشعر، وتباين مذاهبهم فيه).

ووفق هذه الفكرة الموضوعية المتزنة إزاء اختلاف اهواء الناس ومذاهبهم الفنية التي تحكم آراءهم النقدية ومنهجيهما الفني معاً تاركاً الحكم للقارئ في اتخاذ الرأي الذي يوافق مذهبه الفني وذوقه الأدبي.يقول الآمدي: (فأما أنا فلست أفصح لتفضيل احدهما على الآخر، ولكنني اقارن بين قصيدة وقصيدة من شعرهما اذا اتفقا في الوزن والقافية واعراب القافية، وبين معنى ومعنى ثم اقول أيهما اشعر في تلك القصيدة وفي ذلك المعنى ثم احكم انت حينئذ إن شئت على جملة ما ، لكل واحد

أراد الآمدي ان يكون منهجه في الموازنة مبنياً على أن يوازن بين البيتين أو القطعتين اذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية،ولكن هذا لا يكاد يتفق مع اتفاق المعنى، لذلك عدل عن رأيه هذا، لأن الاتفاق في الوزن والقافية والمعنى لا يمكن ان يحصل بين شاعرين متعاصرين، إلا اذا كانت قصيدتاهما من النقائض.

أما الموازنة بين البيتين او القطعتين المتفقتين في المعنى، فذلك ما يمكن أن يجده في شعر ابي تمام والبحتري.وهو ما عمل به أثناء المقارنة بينهما.

وعلى الرغم من الشائعات التي كانت تشير الى ميل الآمدي الى البحتري أو الى الشعر المطبوع عامة، إلا أنه كان متحرجاً عن اصدار الحكم العام بعيداً عن فرض رأيه على الآخرين.لأن المفاضلة بين شاعرين جيدين منوطة بالذوق والفطنة والتميز.

وفي ضوء ذلك سوف ندرج بعض االنماذج التي قام بها الآمدي من خلال موازنته بين بعض الابيات ومعانيها.

لقد وازن الآمدي بين بيتين لابي منصور النمري وابي تمام.فأما بيت ابي منصور فهو قوله:

وعين محيط بالبرية طفرها سواء عليه قربها وبعيدها

ويريد به أن يمدح الخليفة بكونه راعياً لأمور الرعية،فعينه محيد بقريبهم وبعيدهم.وقد أخذ ابو تمام المعنى حين قال: أطل على كل الآفاق حتى كأن الارض في عينيه دار

والكلي جمع كلية وقد استعارها ابو تمام للآفاق، لأن من اطلع على كلية الشيء فقد خبر أمره، اذ كانت الكلية لا تكون إلا في الباطن.وقد أحس الآمدي ان الشطر الاول من بيت ابي تمام يحتاج الى التوضيح والشرح، وغن كان معناه هو معنى النمري نفسه. ولهذا قال في الحكم بينهما (عجز هذا البيت حسن جداً، وبيت النمري أحب إلي لان معناه أشرح).

وذكر بيت ابي تمام الذي عده من خطئه:

بيوم كطول الدهر في عرض مثله ووجدي من هذا وهذاك أطول

فجعل للدهر وهو الزمان عرضاً وذلك محض الخيال وعلى وعلى انه ماكانت به إليه حاجة، لأنه قد استوفى

المعنى بقوله كطول الدهر ،فأتى على العرض في المبالغة .

وقد اعترض الآمدي ايضاً على استعارات ابي تمام التي وجد فيها النقاد غرابة وخروجاً على المألوف، انطلاقاً في شروطهم النقدية في وجوب كون الاستعارة سائرة على طريقة العرب الأوائل.

وقد حلل الآمدي استعارات ابي تمام ووازن بها ما قاربها أوجاء منها عند الشعراء العرب السابقين،فكانت تعليقاته انعكاساً لذوقه العام المنبثق عما هو معهود في طريقة الشعراء الاعراب او الاوائل في الاستعارات مع اعترافه احياناً بجمال استعارات ابي تمام وحسن ابداعه.فهو يعلق على قول ابي تمام:

تحملت مالو حمل الدهر شطره لفكر دهراً أي عبأيه أثقل

فجعل للدهر عقلاً وجعله مفكراً في أي العبأين أثقل، وما شيء هو ابعد من الصواب من هذه الاستعارة.وكان الاشبه والاليف بهذا المعنى لما قال(تملت ما لو حمل الدهر شطره) ان يقول لتضعضع أو لأنهد، ونحو هذا ما يعتمده اهل المعاني من البلاغة والافراط. ثم يحاول الآمدي ان يجد سبباً لأغراب ابي تمام فيقول(وانما رأى ابو تمام اشياء يسيرة من بعيد الاستعارات متفرقة في اشعار القدماء كما عرفتك لا تنتهي في البعد الى هذه المنزلة فأخذها واهب الإبداع والإغراب بإيراد امثالها فاحتطب واستكثر منها.

لا تسقي ماء الملام فأنني صب قد استعذبت ماء بكائي

عاب بعض النقاد استعارة الماء للملام وسخر بعض الشعراء من ابي تمام حين قدم عليه وسأله ان يسقيه كأساً من ماء الملام فكان جواب ابي تمام الذكي المشهور(اعطني ريشة من جناح الذل اسقيك كأساً من ماء الملام).أما الآمدي فوقف من قول ابي تمام:

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفيك ماربثُ في أنه برد

أما الآمدي فيرى أن الخطأ بين من خلال مقارنة هذه الاستعارة بأوصاف القدمين الذين رآهم بصفون الحلم بالعظم والرجحان والثقل والرزانة.

وهكذا نرى أن الآمدي في موازنته بين معاني الشاعرين دون ان صدر حكماً بأفضلية احدهما على الآخر، مكتفياً ببيان رأيه في الموازنات الجزئية التي يستطيع من خلال أسس الموازنة فيحكم بالمساواة بينهما أو بتفاوتهما وفق أسس معينة

حجج أصحاب البحتري وأبي تمام

بدءاً يجب أن نعلم أن الآمدي قبل أن يعرض موازنته،قام بعرض حجج الفريقين المتعصبين للأبي تمام أو البحتري.ليجعل القارئ على بينة من طريقة الشاعرين أولاً، وعلى بينة أيضاً من آراء المعجبين بشعر الشاعرين. ونجد في آراء الفريقين خلاصة للحركة النقدية التي ازدهرت حول الشاعرين.

ومن أمثلة هذه الآراء والاحتجاجات ما يلي:

1-احتج أصحاب أبي تمام ان صاحبهم اشعر من البحتري لأن الأخير قد تتلمذ عليه واخذ منه واستقى من معانيه حتى قيل الطائي الكبير أبو تمام والطائي الصغير البحتري. أما رد أصحاب البحتري فيتلخص في أن البحتري عندما التقى بابي تمام وهو شاعر قد استوى عوده حين انشده البحتري في مجلس قصيدة من عيون الشعر، وفاخر كلامه ومع ذلك يعترف هولاء بأنهم لا ينكرون أن البحتري استعار من معاني أبي تمام لقرب البلدين، وكثرة ما يطرق من سمع البحتري من شعر ابي تمام فيعلق شيئاً من معانيه معتمداً للأخذ أو غير معتمد ومع ذلك لا تكون استعارته مانعة في تفضيله على أبي تمام.

2-احتج أصحاب ابي تمام بأن البحتري نفسه قد اعترف بأن جيده خير من جيده،على كثرة جيد أبي تمام فهو بهذه الخصال أن يكون اشعر من البحتري،أما أصحاب البحتري فيقولون أن قول البحتري(جيده خير من جيدي ورديئي خير من رديئه) إن صح فهو للبحتري لا عليه لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبي تمام شديد الإختلاف وشعره شديد الاستواء.والمستوى الشعري أولى بالتقدمية من المختلف.

إن هذا الرأي والرد عليه يمثلان معاً موقفاً نقدياً مهماً خلاصته الإجابة على التساؤل، هل يكفي النظر الى الجزئيات أو السلبيات الموجودة في شعر الشاعر؟ أم أن الحكم على شعره يجب ان يكون من خلال النظر الى مجموعه وما فيه من إبداع وجمال كلي؟.

3-قال صاحب أبي تمام (فأبو تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أولاً وإماماً متبوعاً واشتهر به حتى قيل هذا مذهب أبي تمام وطريقة أبي تمام وسلك الناس منهجه وإقتفو أثره، وهذه فضيلة عرى عن مثلها البحتري.

إن هذا الإحتجاج لأبي تمام هو أساس الحركة الفنية التي قامت حول شعره، إذ مردها غالباً الى مذهبه الفني الذي حاول فيه إبتداع المعاني واللجوء الى المبتكر من الأخيلة والصور التي أثارت خلافاً بين النقاد لان بعضهم رأى فيها مخالفة لما اعتادوا وجوده عند شعر الأقدمين.ان الابتداع والإجادة في تصوير المعاني التقليدية بأخيلة مبتكرة هو أساس عبقرية أبي تمام التي تجلت في استعاراته وتشبيهاته الجديدة.ومع ذلك يحتج اصحاب البحتري لصاحبهم ويحاولون طمس هذه الميزة حين يورد الآمدي على لسانهم أن الأمر ليس في اختراعه لهذا المذهب على ما وصفتهم.ولا هو هو بأول فيه ولا سابق إليه بل سلك في ذلك سبيل مسلم واحتذى حذوه.وأفرط وأسرف وزال عن النهج المعروف والسنن المألوفة.

4-إن السمة الفكرية التي صحبت السمات الفنية الموجودة في شعر أبي تمام من خلال إيراده المعاني الذهنية في أخيلة واستعارات جديدة مبتكرة.وهذه السمة جعلت أصحاب أبي تمام يقولون دفاعاً عنه(إنما اعرض عن شعر أبي تمام من لم يكن يفهمه لدقة معانيه وقصور علمه، وفهمه العلماء وأهل النقاد في علم الشعر وإذا عرفت هذه الطبقة فضله لم يضره طعن من طعن بعدها عليه).

أما رد أصحاب البحتري الذي يورده الآمدي فيتلخص بمحاولة عرضهم لآراء عدد من العلماء الذين أنكروا مذهب ابي تمام موردين في ذلك رأي ابن الأعرابي واحمد بن عيسى الشيباني وغيرهما ويتلخص رأيهم بمقولة ابن الأعرابي عن شعر أبي تمام (إن كان هذا شعراً فكلام العرب كله باطل).

أما الإعجاب ببديع أبي تمام فمردود برأيهم لوجود البديع في شعر البحتري أيضاً، يضاف إليه فضل معروف وهو كثير في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة وانفرد بحسن العبارة وحلاوة اللفظ وصحة المعاني.

5-قال صاحب البحتري(قد علمتم وسمعتم الرواة كثيراً من العلماء بالشعر يقولون " جيد أبي تمام لا يتعلق به جيد أمثاله وإذا كان كل جيد دون جيده،لم يضره ما يؤثر من رديئه".

أما رد صاحب البحتري فهو أن جيد أبي تمام صار موصوفاً(لأنه يأتي في تضاعيف الرديء الساقط فيجيء رائعاً لشدة مباينته ما يليه فيظهر لفظه بالإضافة والمطبوع الذي هو مستوى الشعر، قليل السقط لا يبين جيده من سائر الشعر بينونة شديدة ومن اجل ذلك صار جيد أبي تمام معلوماً وعدده محصوراً.